# علم النفس والحرب [1]

للدكتور صبري جرجس

كانت الأسباب المعروفة للحرب لا تتجاوز الى عهد غير بعيد ، أثر بعض العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتفاعل في أمة ما أو في مجموعة من الامم فما تزال بها حتى تنتهي الى نزاع قد يؤدي الى نشوب الحرب

ولا ريب في أن لهذه العوامل أثرها البيّن من حيث هي سبب مباشر للحرب في معظم الأحيان ان لم يكن فيها جميعاً ، ولكن وراءها على الدوام مجموعة من العوامل السيكولوجية الناشئة من تفاعل طائفة من القوى النفسية ؛ وهذا هو الجانب الذي سنعنى به في هذا البحث .

وكلنا يعرف أن علم النفس هو علم دراسة العقل — أي العلم الذي يتناول دراسة العمليات العقلية الكامنة وراء السلوك الظاهر — ومن ثمّ فانهُ يعنى ببحث العوامل التي تحرك جميع ألوان النشاط الانساني . وليست الحرب بعد الا لوناً من النشاط الانساني — لعله — وخاصة في الحروب الحديثة أشدها فتكاً وأعمها تخريباً وهدماً

ومقتضى دراسة سيكولوجية الحرب البحث في سيكولوجية الجماعات التي تشترك فيها وسيكولوجية الافراد — أي الزعماء — الذين يؤثرون في هذه الجماعات حتى يصلوا بها الى حالة التأهب بل القبول النفسي للحرب . اي اننا سنبحث هنا العلاقة السيكولوجية التي تربط بين الزعماء والشعوب ، ومختلف المؤثرات الاجتماعية والبيئة وغيرها التي قد تكون ذات أثر في اعداد الزعماء اعداداً نفسيًّا خاصًّا ينبه فيهم غرائز التعدي ويثير في نفوسهم النزوع الى المشاكسة

— ١ —

ونبدأ ببحث الصفات السيكولوجية للجماعات فيكشف لنا ذلك عن الأسباب التي تدفع الجماعات في بعض الاحيان الى ارتكاب أشد الاعمال سخفاً وأقلها حظًّا من العقل والمنطق

والجماعة كما يقول الاستاذ جينزبرج هي جمهور من الناس له اتجاه مشترك وهدف مشترك

---

(١) خلاصة وافية لمحاضرة ألقيت بالانكليزية في دار المعهد العربي في يافا

مما يعمل على اثارة أفكار و انفعالات متشابهة في عقول أفراده فيحسون بأن هناك شيئاً مشتركاً يجمع بينهم

والى جانب ذلك تتصف الجماعات بهبوط مستوى ذكائها . وقد قال ليبون وهو من أكبر الثقات في سيكولوجية الجماعات إن عقل الجماعة يطابق في مستواه عقل الطفل أو عقل الانسان البدائي . وقال مكدوغل إن مستوى الجماعة يهبط الى مستوى أقل فرد فيها ، ومن ثمّ فان الزعيم الذي يخاطب الجماهير انما يخاطبهم بعبارات عامة مبهمة تحرّك عواطف الطبقة الغالبة من جمهور سامعيه فتصل الى موضع الاقتناع فيهم وتدفع بهم الى جانبه

ومن الصفات المميزة لسيكولوجية الجماهير عدم شعور الافراد الذين تتألف منهم بالمسؤولية . اذ كيف يتسنى لهم أن يشعروا بالمسؤولية وهي موزعة عليهم وضائعة بين جموعهم . فاذا اجتمع الى جانب ضياع الشعور بالمسؤولية في الجماهير هبوط مستواها العقلي وسرعة تأثرها بالايحاء فقد توافرت لها العوامل التي تؤدي الى ما تراه فيها من السذاجة والنزق وعدم الاحتمال والاندفاع والثبات الحاسم

والى جانب هبوط المستوى الذهني للجماهير نرى المبالغة والاغراق في اظهار عواطفها وانفعالاتها ولعلّ هذا يرجع الى أن الافراد الذين يؤلفون الجمهور ، وقد أحسوا حماية الاجماع ، لا يرون ضرورة ضبط انفعالاتهم كالمعتاد ، ومن هنا انطلاقها دون كبح أو ضابط

ولكن لعلّ أهم الصفات المميزة للجماهير هو عظم قبولها للايحاء — وقد قال ليبون في تعليل ذلك أن الجمهور يحدث في افراده حالة تشبه الاستهواء . والاستهواء كما نعلم يجعل الفرد أكثر قبولاً للتأثر بالايحاء . وقد دلت تجارب العلاج النفسي على أن بعض المرضى سريعون الى قبول الايحاء والاستهواء في حين أن قبول البعض الآخر للاستهواء يكاد يكون مستحيلاً وأظهر التحليل النفسي بعد ذلك ان قبول الايحاء يتوقف الى حدٍّ كبير على نوع التوافق أو التآلف بين العقل الباطن في الطبيب المنوّم والعقل الباطن في المريض المنوَّم . وبتطبيق هذه القاعدة على العلاقة بين الزعيم وشعبه يرجح لدينا أن أثر الزعيم في الشعب يرجع الى التآلف بين العقل الباطن للزعيم والعقل الباطن للكثرة من الشعب — لانه بذلك يستطيع أن يثير فيهم الايمان به والاطمئنان اليه ومن ثمَّ فهم يتبعونه . وقد قيل في بعض الاحيان — خطأ — ان الزعيم يمكن ان يقود شعبه بأن يوحي اليه شعور الخوف منه او الاستسلام اليه . فان الشعب لا يتبع زعيماً الا اذا أحبه واحترمه ووثق به واطمأن اليه وربما أن يصل الى أهدافه عن طريق زعامته . والزعيم الذي تكون غريزة التعدي في نفسه قوية متنبهة انما يعمل على إثارة روح جماعته أو شعبه عن طريق التعدي لا عن طريق الاذعان والاستسلام .

لأن الزعيم الحق — كما يقول وليم براون — يجب أن يجعل تابعيه في مثل روح التحدي الغالبة عليه ، والشعب الخائر الفزع لا يمكن ان يحقق هدفاً مهماً تكن روح التحدي في الزعيم من القوة والانتباه . فالتآلف بين العقل الباطن في الزعيم والشعب لازم لنجاح الزعامة بل لقيامها ، كما أنه لازم ايضاً لنجاح العلاج النفسي عن طريق الايحاء

— ٢ —

وحسبنا هذا القدر عن المميزات النفسية للجماعات والشعوب على وجه العموم وعن العلاقة بين الزعيم وشعبه . ونتقل الآن الى بحث ناحية أخرى هي في الوقت ذاته جانب ذو شأن من الأساس السيكولوجي للحرب القائمة . تلك هي سيكولوجية الديكتاتورية . وينبغي ان ننبه هنا الى ان هذا يجب ألا يغض من قيمة العوامل الأخرى — الاقتصادية منها أو السياسية — التي يجوز أن تكون قد ساهمت بنصيب في نشوب الحرب لكننا في الوقت ذاته نريد ان نؤكد الناحية السيكولوجية التي أضفت على هذه العوامل سماتها البارزة كالسبب المباشر او غير المباشر للحرب . وقد شغل البحث في سيكولوجية الديكتاتورية كثيراً في المشتغلين بعلم النفس والامراض العقلية وظهرت في هذا الخصوص نظريات متعددة ولكن لعل نظرية ستيكل هي أقربها الى القبول وأحظاها بالذيوع . وهي تقوم على ما يسميه « مركب السلطة » وتعلل المزاج النيوروزي للديكتاتورين كما تعلل قبول معظم الناس الخضوع لسلطان الديكتاتورية معاً . ويبدأ « مركب السلطة » هذا في عهد الطفولة ، وهو يتخذ صورة نزاع مستمر بين غرائز الطفل وبيئته ، فان غرائزه تريد الارتواء الكامل المطلق والبيئة تنكر عليه ذلك وتعاقبه اذا تعدى الحدود التي رسمتها له ، ومن ثم النزاع ، ومن ثمّ احساس الطفل بالعداوة للسلطة — ممثلة في أول الأمر في الابوين ثم في المدرسة ، ثم في المجتمع عن طريق القانون ثم في الدين

وقد ضعف أثر السلطة في المجتمع الحاضر ، وخصوصاً بعد الحرب الكبرى ، فان الوالدين انفسهم لم يستطيعوا البقاء في المستوى الأدبي الرفيع الذي كانوا يطلبونه في اماثيل بل وفي بعض الاحيان يفرضونه عليهم . وأحس الابناء بجور هذه المعاملة احساساً مرّاً ومن ثمّ حاولوا ان يثأروا لأنفسهم بالثورة على سلطة والديهم .

وكذلك كان الحال في المدارس والجامعات . أما أثر القانون كسلطة تخشى فقد ضعف كثيراً بعد الحرب . وبتقدم العلم الحديث انتقل اليه جانب كبير من السلطة التي كان الدين يستأثر بها من قبل

وقد كان من أثر الضعف الذي أصاب منزلة السلطة ما نراه الآن ، من الردة الى الماضي والميل العنيف الى الكراهة والقسوة والنزوع الى الهدم والتخريب — فكانت النتيجة

تسرب هذه الوراثات الاجتماعية التي تتمثل في الديكتاتوريات . فان الناس قد يحنقون على السلطة . ولكنهم لا يستطيعون الحياة دونها على أية صورة من الصور

والأطفال الذين حنقوا على سلطة والديهم هم أنفسهم الذين وجدوا في الديكتاتورين عوضاً عن آبائهم ، ولكن لا بد من أزمة اجتماعية او اقتصادية أو ما شابه لكي تمهد الطريق للديكتاتورية . والناس يحاولون دائماً أن يجدوا سبباً للوم الازمات ولا أقرب اليهم ولا أسهل عندهم من توجيه اللوم الى نظام الحكم القائم ، ومن ثمّ ينهار هذا النظام ، ليقوم على انقاضه النظام الديكتاتوري الذي يجعل القوة المسلحة جزءاً متمماً له ، ومن ثمّ يضمن البقاء

ولكن الناس لا يحنقون على سلطة الديكتاتور أو الزعيم كما حنقوا على سلطة الأب ، لان شك الناس في عصمة الزعيم يقل كلما زاد عدد أنصاره وأتباعه . ويقول ستيكل في هذا أنه كلما زاد عدد أتباع الزعيم ضعفت حاجة الناس الى الشك فيه ، وسهل ان يتحول شعورهم بأنفسهم من الضعف الى القوة ، لانهم يضعون أنفسهم في شخصية الزعيم فيحسون كأنهم يشاركونه الزعامة والسلطان وكأنما أصبحوا جزءاً منه وأصبح هو جزءاً منهم

وحياة الدكتاتورين ميدان فسيح للدراسة . فكلهم عانى من قسوة « مركب السلطة » أثناء الطفولة وكلهم ثار عليه ، ولكن ثورتهم انتهت الى النجاح . فبعد طفولة حافلة بالشقاء والحرمان استطاعوا ان يثأروا لانفسهم من والديهم بفرض سلطتهم على الغير ، ومن ثمّ أصبحوا آباء شعوب لا أرباب أسرات

وثمة « النيوروز » ظاهرة في جميع الدكتاتورين . وفي تاريخ حياة كل منهم يمكن ان نجد عاهة ما — جسدية او نفسية — تسبب شذوذاً ثم ان نشأتهم في فقر [illegible] او عانى طفولة شقية او نشأ من أصل حقير ومن ثمّ فهم يحاولون تعويض شبابهم القاسي بطلب المجد والسلطة فيما بعد . وهم يصلون الى هذا المجد ، ولكن الاصابات النفسية التي وقعت لهم في أيامهم الاولى لا تزال تلاحقهم بالاذى بحيث تلتوي الغرائز والنزعات والانفعالات الطبيعية في نفوسهم فتظهر في صورة منحرفة او شاذة او مرضية

وثمة ظاهرة أخرى أطلق عليها ستيكل اسم « ثنائية الانفعالات » او « النزوع الثنائي للانفعالات » ومقتضاها تستطيع النفس الانسانية ان تجمع بين النقائض من النزعات والانفعالات ومن ذلك ان الحب لا يمكن ان يوجد بغير كراهة ، والانسان الذي لا يستطيع ان يعيش بغير حب لا يستطيع أيضاً ان يعيش بغير كراهة لان حاجته الى الكراهة لا تقل عن حاجته الى الحب . وليست الكراهة في ذاتها هي ما ينبغي ان نخشى : فهي ظاهرة لحفظ الذات ، أي ظاهرة للحياة . ولكنها الكراهة غير الواعية ، الكراهة الباطنة هي ما يجب

ان نعنى به ، وليس في نظمنا الاجتماعية والاقتصادية لسوء الحظ ما نجني منه غير الحقد والكراهة فان هذه النظم تشجع عدم المساواة وتدعو الى أعنف المنافسة وتحتضن المظالم في مختلف صورها وألوانها . وكل ذلك انما يعمل على ان يملأ نفوسنا بالكراهة والبغضاء . فاذا لم نستطع ان نجد لها مخرجاً واعياً ، او اذا لم نستطع نحن ان نتسامى بها فانها تكبت او تكظم أي تختزن في العقل الباطن مما يؤثر في تكوين دوافع سلوكنا فيما بعد تأثيراً سيئاً .

وقد أظهر التحليل النفسي في كثير من الحالات ان العقل الانساني يحوي في قرارته كثيراً من انفعالات الكراهة ونزعات الاعتداء مرتبطة بغيرها من النزعات ارتباطاً وثيقاً . فاذا لم تستطع هذه النزعات ان تجد تسامياً مناسباً — وليس من شأن الطفولة الشقية المحرومة ان تمهد لصاحبها سبيل ذلك التسامي — فلن يبقى لهذه النزعات الا ان تحاول الظهور الى الوعي بصورة ضارة ومؤذية للمجتمع ولا نهاية للامثلة المستخرجة من تجارب الأمراض النفسية في هذا الصدد

ومن الحالات الوثيقة الاتصال بظاهرة الكراهة والتي لها أثر مشابه في تكوين الأسباب السيكولوجية للحرب تلك الحالة المعروفة بالبارانويا . والبارانويا مع ما يتصل بها من الأحوال المماثلة هي حالة مرضية ، صفتها المميزة لها وجود أوهام ثابتة ، منظمة منسقة تنسيقاً منطقياً متقناً ، ومتجهة في الغالب الى الشعور بالاضطهاد . وكل انسان يمكن أن تظهر فيه هذه النزعة البارانوية الى حدٍّ ما في بعض الاحيان ولكنها لا تؤذي صاحبها او المجتمع اذا ظلت في نطاقها الاجتماعي ، أما اذا جاوزت النطاق الاجتماعي ووصلت الى الحدود المرضية ، أي اذا أصبحت الأساليب التي يتخذها الفرد لمواجهة مشكلات الحياة ، فانها حينئذٍ تصبح خطراً يهدد الفرد والمجتمع . ويزداد هذا الخطر وضوحاً اذا ذكرنا ان كثيراً من الحالات المتوسطة وبعض الحالات المتقدمة يبقى أصحابها دون ان يكتشف أمرهم على حقيقته ، فينظر الناس اليهم على أنهم من أصحاب الشذوذ او الأهواء المتقلبة ويغتفرون لهم من سلوكهم ما لا يغتفرونه لغيرهم من الناس . وليست البارانويا من الآفات العقلية التي تؤثر في الذكاء بل ان كثيراً من حالاتها يصيب أشخاصاً من ذوي الذكاء الخارق ، ويبلغ من حذق بعض المصابين بالبارانويا ، ومن مهارتهم في اظهار أوهامهم في صورة الحقائق ، اننا لو أخذنا فروضهم كما هي لبدت أوهامهم على قدر كبير من التماسك والمنطق والصدق ، ومن ثمّ قدرتهم على خداع عدد كبير من الناس قبل ان يكتشف أمرهم أو يشتبه فيهم اذا حدث هذا على الاطلاق

وهنالك عوامل خاصة في البيئة قد تساعد على توليد النزعة البارانوية أو على تغذيتها في الشخصية ، نذكر منها العوائق الاجتماعية التي قد يلقاها الفرد في مختلف أدوار حياته ، وقسوة بعض الأحوال التي يجد نفسه فيها على الرغم منه (كأن يكون ابناً غير شرعي) ، او الدمامة او

المفاجآت الجديدة الظاهرة، او الفقر، ونقص التعليم، والطموح الذي يجاوز المقدرة على تحقيقه

واهم الصفات المميزة للبارانويا هي أوهام الاضطهاد، فيعتقد الفرد انه مغمور وأنه لا يلقى حقه من تقدير الناس وأنه مضطهد ويحيط به أعداء يتآمرون عليه. وهو يعطي للحوادث التافهة دلالة كبيرة فيعتقد ان الناس يكرهونه وينعكس هو هذا الشعور فيكرههم، وتشتد هذه الكراهية نحو أشخاص معينين. ومن ثمَّ خطر البارانويا الكامن في محاولة بعض المصابين بها قتل غيرهم. ولو نقلنا هذه الصورة الى العلاقات الدولية لاتضح لنا ما للبارانويا من شأن في المنازعات بين الدول. تلك المنازعات التي قد تنتهي الى مثل الحرب القائمة الآن

فقد يكون بعض زعماء الشعوب من المصابين بأوهام الاضطهاد البارانوية وقد تنعكس هذه الاوهام بكل ما فيها من نظام وتنسيق منطقي في شعورهم، فيرى الزعيم المريض في كل حركة من حركات الدول الاخرى تحرشاً بأمته ويرى في كل تصريح من تصريحات قادتها تحدياً لها ويستخرج من كل اتفاق دولي « تطويقاً » لشعبه القصد منه اضطهاده واضعافه. وقد تنتقل هذه العدوى من الزعيم أسير اوهامه الى الشعب بأسره فتنبه فيه تلك النزعة البارانوية الضاربة الى الاعتداء بغية التسلط وسيادة العالم. ومن الجائز ان تعقب أوهام العظمة هذا الدور من الاضطهاد. وتنشأ أوهام العظمة من تنبه مشاعر التفوق في الفرد فيستحيل احساسه بالاضطهاد، الى الشعور بالعظمة والسمو ويبدأ يرى في نفسه مواهب خارقة وينظر الى غيره من الناس نظرة التعالي الى من هم دونه ذكاء ومكانة. وقد تنتقل أوهام العظمة كأوهام الاضطهاد من الفرد الى الشعب. ولعلَّ هذا يفسر لنا كيف يجوز أن يصبح وهم زائف مثل خرافة التفوق العنصري العقيدة المتعصبة والايمان الأعمى لشعب بأسره

وقد ذكرنا ان البارانويا لا تتعارض مع الذكاء بل قد يصحبها صفاء الفكر وشدة العزم والتنفيذ، فاذا استطاع شخص له هذه الصفات ان يصل الى زعامة شعب قوي فلن يكون نشوب الحرب أمراً بعيد الاحتمال

— ٣ —

أما وقد ألممنا بطائفة من العوامل النفسية التي تعمل من وراء الستار على تهيئة الجو للحرب، فلنرجع لعلم النفس نصيب في اقتلاع جذور الحرب من المجتمع الانساني وفي اماتة بذورها من النفس الانسانية؟ بل ان له نصيباً سوف ينمو ويزدهر مع الايام

ان علم النفس لا يزال علماً ناشئاً يحبو نحو فهم الدوافع الحقيقية في السلوك الانساني، ولكنه مع ذلك يستطيع ان يقرر عن ثقة ان المواعظ الادبية لا أثر لها في تغيير سلوك الانسان او في إفراغه في قالب خاص. وقد كان هذا جائزاً أو ممكناً لو ان العقل كان قاصراً على الجانب

الواعي فقط وهو الجانب الذي يستطيع الفرد ان يسيطر عليه . ولكن العقل كما يقول وليم براون له طبقاته البعيدة الغور الناشئة من اثر التجارب والانفعالات السابقة التي مر بها الفرد ورسبت منذ عهد بعيد ثم لا تزال أثرها باقية على مر الأيام والسنين . وهذا الجانب غير الواعي من العقل يجب ان يعمل حسابه دائماً لانه يحتوي على بقايا أدوار التقدم التي مرّ بها الانسان؛ ولأن فيه ميراثاً كبيراً من المشكلات التي لم تحل ، ولانه يصوّر ألواناً من السلوك المناسب النوع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الحياة التي يحياها الفرد الآن

وليس السلم مجرد عدم قيام الحرب فان السلم كما يقول وليم براون هو حالة ايجابية يجب ان تجد لها محلاً في المجتمع المنظم المتمدن . ولا ينبغي ان يكون مجرد الخلاف في مثليات النظم الاجتماعية او السياسية سبباً يؤدي في ذاته الى نزاع لا يحسم الا بالحرب . فان الحرب لا يمكن ان تنشب — والحرب الحالية تؤيد ذلك — الا اذا كظمت الجوانب الهدّامة في غرائزنا ونزعاتنا او نبهت تنبيهاً ضارياً بدلاً من التسامي بها . وكيف لنا ان نرجو السلم اذا كانت نظمنا القائمة — الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على السواء — تقطر فينا المنافسة الضارية وتملأ عقلنا الباطن بالحسد والكراهة والعداوة والقسوة ؟ ولكننا مع هذا لا ينبغي ان نكون متشائمين عند النظر الى حضارتنا ولا ينبغي أن نتحدث عن أنهيارها وانحلالها ، فلعلنا لا نزال في أولى خطوات الحضارة . ونحن نستطيع أن نقتصد على أنفسنا كثيراً من النوازل والتضحيات التي لا ضرورة لها اذا اعتدنا مواجهة مشكلاتنا مواجهة صريحة مخلصة صادقة وحاولنا أن نفهم القوى النفسية التي توجه سلوكنا وتقرر نزعاتنا . حينئذٍ سنعرف أنهُ ينبغي لنا ان نزيد الايمان والثقة والتعاون بين الشعوب والافراد على السواء ، وينبغي ان نعمل على تحرير انفسنا من رق الانفعالات البدائية والطفلية ، وان نحاول التفكير العلمي الذي لا يتأثر بالتقاليد الزائفة ولا بالكبرياء القومي ولا بهيبة المجد والسلطان الواسع . أي ينبغي علينا ان نعد انفسنا اديباً للسلم وأن نحقق ما اسماه وليم براون « نزع السلاح النفسي Psychological Disarmament » لكي نتجنب الحرب

وعلى زعماء الشعوب مسئولية خطيرة في هذا الخصوص فان في استطاعتهم اذا شاءوا أن يوجهوا القوى الكامنة في شعوبهم نحو البناء أو نحو الهدم ، وفي استطاعتهم أن يطلقوا الغرائز الخبيثة في شعوبهم فتنطلق جامحة ضارية . ومن ثم يجب أن يعرف زعماء الشعوب ذواتهم على حقيقتها ويجب أن يتفهموا القوى التي تعمل في عقولهم الباطنة وفي عقولهم الواعية على حدٍّ سواء . وقد يكون من الوسائل الوقائية في المستقبل ان يأخذ المجتمع باقتراح الدكتور ادوارد جلوفر الذي يقضي بضرورة عمل التحليل النفسي للزعماء حتى يمكنهم أن

يكشفوا عن القوى التي تعمل في نفوسهم ظاهرة او من وراء ستار وحتى يستطيعوا كشف المركبات أو العُقد النفسية الضارة والتحرر منها في الوقت المناسب

— ٤ —

غير ان الدور الذي يستطيع علم النفس ان يقوم به في منع الحروب سيبقى ناقصاً حتى نصل الى حل مناسب لمشكلة التربية

ولعلم النفس حتى الآن اقتحامات موفقة في ميدان التربية لانه في هذا الميدان يستطاع ان يثبت نتائجه بالتطبيق العملي والنتائج الايجابية . وعلم النفس هو الذي كشف لنا عن كثير من الدوافع في سلوك الطفل ، ودلنا على كثير من احتمالاته الكامنة وبواسطته نستطيع الآن ان « نصب » الطفل في القالب الذي نريد أن ينشأ عليه . فنحن نستطيع ان نكبح القوى التي تنزع به الى سلوك طريق ضار بالمجتمع ونستطيع ان نغذي تلك التي تجعل منه عضواً نافعاً في النظام الاجتماعي . ولكننا لن نستطيع الاستعانة بالتربية كوسيلة من أقوى الوسائل أثراً في تنشئة الافراد نشأة صحيحة سليمة حتى نحدد مثلياتنا في التربية اولاً وحتى نعرف ما عندنا من الوسائل لتحقيق هذه المثليات

وقد قيل شيء كثير عن أهداف التربية ، وقال ادلر أن كل نظام سليم للتربية يجب أن يجعل هدفه « التوفيق الاجتماعي » اي التوفيق بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه وذلك بزرع هموم اجتماعية مناسبة . وقد يكون « التوفيق الاجتماعي » أساساً صالحاً لتنشئة الاطفال نشأة صحيحة في مجتمع بعينه ، ولكنه لا يستطيع ان يمنع احتمال النزاع والمشاحنة بين مختلف الجماعات الا اذا استطعنا أن نزرع في أبنائنا بذرة العالمية فيشبوا وهم يحسون كأن العالم كله هو مجتمعهم الكبير

ولن نستطيع أن نصل الى شيء من هذا الا اذا تضافرت نظم التربية جميعاً وعملت على أن تفطر في شباب الامم على اختلافها روح الايمان بالانسانية وعملت في أن تحررهم من التعصب في كل صورة من صوره — القومي والعنصري والديني . فلعل كثيراً من دوافع الحروب السابقة . ومن دوافع هذه الحرب أيضاً يمكن ان يعزى الى روح التعصب الاعمى والكبرياء الزائف والعناد الجاهل دون الاستماع الى صوت العقل

وتحتاج نظم التربية القائمة الآن الى بحث كبير . وقد قال برتراند رسل في نقدها أنها ترمي جميعاً الى احراز التفوق على الغير ، وجميعها مصابة في صميمها بالقسوة المتأوية ، وبفرض عدم المساواة بين الناس وتمجيد النظم الاجتماعية . والتربية في معظم الدول ، ان لم يكن فيها جميعاً ، لها دوافع سياسية ، وهي توجه بحيث تصب « صب » أطفال كل دولة في القالب

الذي يجعل منهم أداة طيعة لخدمة المطامع السياسية لتلك الدولة . فالهدف الاول الذي يجب ان تتجه اليه المثل العليا لنظام التربية هو تحريرها من سلطان السياسة الطاغي ، حتى تستطيع ان تزرع في أطفال جميع الامم على اختلافها بذرة النزعة العالمية ليشبوا والعالم كله في روحهم وفي إيمانهم هو وطنهم الاكبر . والا فان السلم العالمي عن طريق التربية سيبقى حلماً لا سبيل الى تحقيقه في عالم الحقيقة والواقع

وجميع نظم التربية القائمة الآن تزرع في نفوس المتأثرين بها عادات عقلية تؤذيهم وتحول بينهم وبين النمو الطبيعي الصحيح ، ويذكر برتراند رسل في مقدمة هذه العادات الضارة ، الطاعة والنظام والاندفاع القاسي في الكفاح طلباً للنجاح الدنيوي، واحتقار الجماعات المعارضة وسرعة التصديق والقبول السلبي لحكمة المعلم ، وهو يرى أن تتجه أهداف التربية بدلاً من ذلك الى المحافظة على الاستقلال والحافز الفردي ، والى تربية روح العدالة في التفكير ، والى تقطير الاحترام ومحاولة فهم الغير ، والى تنبيه النزعة الى الشك المفيد واثارة روح المغامرة العقلية . وبذلك يمكن ان تكون التربية وسيلة لتغذية نمو الفرد بدلاً من ان تستعمل أداة للسيطرة عليه

حينئذٍ تستطيع التربية ان تنشىء جيلاً من الناس يتمتع أفراده بالاستقلال ويمتازون بالقدرة على التفكير تفكيراً متزناً . حينئذٍ تصبح الانسانية جماعات متضافرة متآزرة خالية من الخوف ، زاخرة بالامل ، بعيدة عن الوقوع تحت سلطان فرد واحد مهما يجتمع لهذا الفرد من نواحي التفوق وتتوافر له من مؤهلات الزعامة

وعلم النفس هو الذي مهد لنا ما نعرفه الآن من القواعد السليمة في ارشاد الطفولة وعن طريقه استطعنا أن ندرك أثر المعاملة السيئة والجهل الاعمى والقسوة في السنين الاولى من حياة الطفل في تكوين الالتواآت والانحرافات المختلفة للعقل فيما بعدها ، فان أثر هذه التجارب السيئة ينطبع في نفس الطفل ثم تجتمع عليها الاحداث الأخرى التي لا يزال الطفل يصطدم بها في بيئته مع الايام . ويكون من جماع هذا كله تلك الصفات الغريبة التي نشاهدها في بعض الناس ، وتلك الصور من الشذوذ العجيب ، وتلك النزعات التي تضعف النشاط العقلي وتفسد التقدير وتنحرف بصاحبها عن السلوك الاجتماعي القويم

وخلاص العالم ، كما يقول برتراند رسل ، رهن بتوفيقنا في أن نعلم الناس ان يكونوا نبلاء دون أن يكونوا قساة ، وان نملىء نفوسهم بالايمان مع تفتحها لقبول الحق ، وان يستوحوا الاغراض العظمى في الحياة دون ان يشعروا بالحقد على اولئك الذين يحاولون الوقوف في سبيلهم